

. الدلالة وعلم البلاغة :

المعنى عامل مشترك بين البلاغة والدلالة، خاصة في علمي البيان والبدیع بشقيه المحسنات اللفظية، والمعنوية، ونقصد من هذا المعاني المركبة التي تعطي معنى يحسن السكوت عليه، ويدل على مراد المتكلم.

وهذه المعاني تطرأ عليها تبدلات تأخذ أشكالاً عدة، كما أن لها أسباباً متنوعة تندرج تحت مسميات متعددة وبخاصة في الدراسات البلاغية. ومن الأشكال التي تأخذها عملية انحراف المعنى أو تبدله: الشكل المنطقي، والشكل الدلالي، والشكل البلاغي.

ففي الشكل المنطقي يرى علماء الدلالة أمثال: دار مستتر، وبريل، وبول، أنه يجب أن نصنف الأشباه والنظائر في إطار منطقي وذلك على وفق تفاوت تقييد وانتشار أو انتقال المعنى.

أما في الشكل الدلالي فإن التحليل السيميائي (الإشاري) يقترح تسمية جديدة، ومقاييس جديدة في التصنيف، واضعاً في الاعتبار سمات القضية الدلالية، وأنها قائمة على الثنائية بين الدال والمدلول، والطبيعة النفسية التداعية لعلاقتها بشكلها الثنائي القائم على التماثل والتجاور.

والبلاغة تؤثر في تبدلات المعنى الدلالي فهي أحد روافده الفنية، ولذا نشأت علاقة وطيدة بين البلاغة وعلم الدلالة.

ويتم تبدل المعنى الدلالي في البلاغة عن طريق عدة طرق وألوان بلاغية منها: فكرة المقال والمقام، والاستعارة، والكناية، والتورية، والتشبيه، والمجاز، وجميعها يتم فيها انزلاق المعنى أو تبدله بطريقة تدخل البلاغة في علم الدلالة، فمن يدرس موضوعات علم الدلالة، لا يمكن أن يغفل هذه الألوان البلاغية باعتبارها من العوامل المؤدية لتبدلات المعنى. كما أن من يعالج الألوان البلاغية لابد أن يتعامل معها من خلال منظور علم الدلالة، خاصة تلك الألوان القائمة على تبدلات المعنى بشرط أن يكون ملماً بماهية المحدد الدلالي حتى يستطيع أن يصل إلى الدلالة السياقية المرادة من الصورة البيانية أو البديعية، حيث إن لكل كلمة معنيان، المعنى الأساسي المعجمي، والمعنى السياقي الذي تأخذه الكلمة حينما توضع في سياق يحدد معنى الجملة بأكملها، وفي هذه الحالة يكون السياق مسؤولاً عن المعنى المحدد الذي يعطى للكلمة.

فمثلا كلمة [عين] عندما تسمع دون أن تكون في سياق جملة محددة فإن الذهن يفهم منها عضوا من أعضاء الإنسان، ومثلها كلمة عين، لكنهما إذا دخلا في سياق حدد المعنى المراد فنقول (يد الفأس) أو (عين الماء) ولذا فإن الكلمة المفردة كلمة معجمية محددة غير قابلة للاحتمال أو التأويل، وإذا دخلت في سياق وتفاعلت مع مستخدمها فإنها تكتسب معنى آخر يريده غير المعنى الأساسي المعجمي.

وقد تكون الكلمة على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، فعلى سبيل المجاز العقلي قولنا "رجلا اللاعب تتحركان بسرعة في الملعب"، فالمجاز ناتج عن نسبة الحركة للرجلين في حين أن المحرك الحقيقي لهما هو اللاعب نفسه الذي يستعمل قوة جسدية وذهنية في هذه الحركة. أما قولنا "للاعب رجلان قويتان" فهو على سبيل الحقيقة.

فتبدل المعنى بهذه الطريقة هو الصورة التي توجد فيها الكلمة منسجمة مع صور أخرى لكلمات غيرها، كصور الأداء، والتفكير، والإنشاء، ومناهج الأسلوب المعروفة باسم تبدلات المعنى . ومن الألوان أو الأمثلة البلاغية التي تؤدي إلى تبدلات المعنى ما يأتي :

أولا: المقام والمقال :

لكل مقام أسلوبه الخاص كما أن له تراكيبه القائمة على ارتباط النحو والمعاني في شكل جمل، والمقام هو ذلك الموقف الذي يتطلب نوعا من الألفاظ تجاوزت بطريقة معينة كي تؤدي المعنى المراد، كما تساهم في ذلك العلاقات والأحداث والظروف الاجتماعية التي ترافق الموقف وقت أداء المقال، ولذا يعتبر مركزا من مراكز علم الدلالة الوصفية، ويعتمد المعنى الدلالي على هاتين الدعامتين (المقام والمقال) اعتمادا كبيرا لما بينهما من علاقة توضح المقصود منهما.

والمعنى المقالي يتكون من معنيين، المعنى السياقي، والمعنى الأساسي، أما المعنى المقامي، فهو الذي يتكون من ظروف أداء المقال، وتلعب الاستعارة التمثيلية أحيانا دورا في المقام فقد يستعار لمقام ما مقال مشابه ذاع واشتهر كالأمثال والحكم التي تغني المتكلم عن تركيب مقال جديد، فهو يستخدمها عند وجود عنصر المشابهة بين الموقفين، وبذلك يصير المقال القديم جزءا من المقام الجديد.

وقد أولى القدماء هذه القضية أهمية كبرى وأفردوا لها مباحث من دراساتهم كالجرجاني والجاحظ وغيرهم. والمعنى الدلالي يشتمل على ما قامت عليه البلاغة أو نادت به واتخذته قاعدة أساسية ألا وهو لكل مقام مقال.

ثانياً: المجاز :

يتم تبدل المعنى عن طريق المجاز وهو عقلي أو مرسل أو لغوي، وللمجاز عند البلاغيين القدامى أهمية قصوى في الدرس الدلالي حيث هو: استخدام اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي.

أي: إن اللفظ يكتسب بالمجاز معنى جديداً غير المعنى القديم المألوف له، وهو المعروف دلالياً بانزلاق المعنى، أما القرينة المانعة فهي المحدد الدلالي الذي يساعد في فهم المعنى الجديد وإلغاء المعنى القديم.